الثقافة العربية في عالم متحول

■ سؤال الثقافة الذي يطرحه علي أومليل في كتابه «سؤال الثقافة: الثقافة العربية في عالم متحول» يرتبط بالتنمية، من جهة أن الثقافة استثمار، يخلق القيمة الأساسية التي تتأسس عليها التنمية، وهي الإنسان، حيث تختلف المجتمعات في نوعية الرأسمال الإنساني، مع أنه ليست كل ثقافة استثماراً منتجاً للتنمية، وهناك ثقافات غير منتجة لها.

وفي كتابه ، يتناول علي أومليل المسألة الثقافية من جوانب عديدة، وكذلك النظرة إلى الثقافة، مستعرضاً وضع الثقافة العربية في عالم متحول، ومعللاً من منظورات ثقافية مختلفة فكرتي الحرية والعدالة. ثم يقيّم حوار الثقافات وعوائقه وآفاقه، وأخيراً يناقش علاقة الدولة النامية بمجتمعها والأسس الثقافية لهذه العلاقة. وفي ضوء المستجدات التي عرفها العالم منذ العقدين الآخيرين من القرن العشرين، أصبح الحديث عن الثقافة أمراً مختلفاً عن ذي قبل، وغدت المسألة الثقافية مثار نقاش واسع. فقد غيرت ثورة تكنولوجيا الاتصالات من طبيعة الأشياء، وصارت المعلومات والمال ورؤ س الأموال تنتقل في زمن حقيقي، مخترقة الحدود والفضاءات.

ونتج عنها أن الثقافة أصبحت بضاعة معولمة الإنتاج، تتحكم في إنتاجها وتسويقها شركات عملاقة. وساد تنميط للبضاعة الثقافية وتسويقها عبر شبكات تتحكم فيها شركات عالمية تنتمي في الغالب إلى بلدان الشمال، ويتحكم فيها عدد من المتنفذين الذين حولوا المنتج الثقافي والإعلامي والترفيهي إلى سلعة معولة.

إذن، أصبحت الثقافة في عالم اليوم قضية إستراتيجية.

والمعروف أن الثقافة مستويان: مستوى أنثر وبولوجي، حيث تكون الثقافة تراثاً من عادات وقيم وتقاليد تطبع الوجدان وينبني عليها السلوك، ومستوى أخر تكون فيه الثقافة شأن نخبة تتداول فيما بينها ثقافة عالمية.

ومع العصر الحديث جرى ربط التعليم بالثقافة، لكن التمايز ازداد في بلداننا العربية بين نوعين من التعليم، ارتبطا بمستويين وسرعتين متباينين: تعليم خاص يستوجب المعرفة الحديثة المطلوبة مهنياً في عالم اليوم، وآخر عام ترعاه الدولة، ويؤدي إلى مهن متدنية إن لم يؤد إلى البطالة.

وأصبحت الثقافة تقسم المجتمع المتخلف إلى قلة قادرة على مواكبة التطور ومسايرة الاقتصاد الجديد، وكثرة لا ينفعها تكوينها العتيق في الاندماج في النسيج الاقتصادي. وهذا الانشطار الحاصل على مستوى المجتمع الواحد حاصل على المستوى العالمي، حيث لم يعد التعليم وسيلة لتجديد النخب، بل لتجديد التفاوت الاجتماعي والتوارث الطبقي للسلطة والثروة، وبالتالي لم يعد وسيلة لنشر الديمقراطية، ولم يعد كذلك وسيلة للتربية العمومية على الحداثة، إذ أصبحت الحداثة شأن أقلية مجتمعية، الأمر الذي يفسر ضعف القاعدة الاجتماعية للحداثة في بلداننا.

وبالعودة إلى الفكر الإصلاحي، وكذلك إلى الحركات التحررية الوطنية، نجد أن للثقافة أهمية خاصة، وكذلك لتحديث القيم الثقافية. وكان التعليم أولوية من أولوياتهما، بسبب الدور الذي لعبه في إطلاق النهضة الأوروبية ونشر الوعي والتنوير والتحديث، وباعتباره وسيلة مهمة لخلخلة البنى الاجتماعية التقليدية وبروز نخب جديدة.

لكن حين دعا طه حسين الذي كان أكثر المفكرين العرب دفاعاً عن فكر الأنوار وأكثرهم اهتماماً بمسألة التعليم، إلى تأميم التعليم الديني وإخضاعه لإشراف الدولة ومراقبتها، لم يكن يدرك أن الدولة التي منحها كل ذلك الدور على التعليم كوسيلة لبناء الديمقراطية والحداثة في العقول، لم تكن هي نفسها ديمقراطية ولا حداثية أو حديثة. وبالتالي فإن فاقد الشيء لا يعطيه.

ويرى علي أومليل أن الليبراليين العرب ـ أمثال طه حسين ـ كانوا يأملون أن يحدثوا تأثيرهم في الدولة القائمة، وأن تطبق أفكارهم بسلطتها، وقد يكون موقفهم هذا بمثابة تبرير لاحتلالهم مناصب في أجهزة الدولة، حيث كانوا عملياً جزءاً من جهاز الدولة القائمة التي لم تكن ديمقراطية بأي مقياس.

وقد كان طه حسين من أولئك الذين اعتبروا أن المسألة الثقافية أعمق في تأصيل التنوير والحداثة. وآمن بعالمية الثقافة الغربية، معتبراً أنها نسخت كل الثقافات والحضارات فأصبحت هي الحضارة، ودعا إلى تبنيها، وإلى تغريب مصر. لكن للدور الحاسم الذي أعطاه للثقافة أهمية في دلالته، خصوصاً وأن الثقافة تطرح في عالم اليوم في علاقتها بالتنمية. وهنا يسترجع علي أومليل السؤال الذي طرحه «ماكس فيبر» قبل نحو مئة عام من الآن، وهو: كيف تصنع الثقافة التنمية؟ وهو سؤال لا يقبله الماركسيون، لأن التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية هي التي تحدد عندهم الثقافة.

وفي أطروحته حول الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، حاول «ماكس فيبر» إثبات العلاقة بين القيم الثقافية للبروتستانتية وبين الاقتصاد الرأسمالي الذي خلق الثروة واقتصاد السوق، معتبراً أن العقلانية الحديثة اختصت بها حضارة الغرب دون باقي الحضارات، وأن الأولى هي التي أرست دعائم الدولة الحديثة بدستورها المكتوب وقوانينها المجردة.

أما «الليبراليون الجدد» فقد أخذوا بفرضية الامتياز الاستثنائي للثقافة الغربية، معتبرين أن الحداثة، متمثلة في الديمقراطية واقتصاد السوق، ما كان لها أن تكون ممكنة خارج القيم الثقافية الغربية. وهي أطروحة مرفوضة، نظراً لأن دعوى الامتياز الغربي لم تعد شيئاً مسلماً به بالقياس إلى التطورات الحاصلة في اليابان والصين وفي شرق وجنوب شرق آسيا، بما فيها دول مثل ماليزيا وإندونيسيا. وإذا كان لهذه الأطروحة ما يبررها والغرب يهيمن على العالم، ذلك لأنه رسخ في أذهان الشعوب المستعمرة، ونخبها بصفة خاصة، أن قوة الغرب راجعة إلى قوة مؤسساته ومصداقية قيمه الثقافية، لذلك دعت الحركات الإصلاحية في البلدان الواقعة تحت حكم الاستعمار الأوروبي إلى تبني قيم الغرب واقتباسها.

وينظر الليبراليون الجدد، كما نظر أسلافهم التقليديون أو الكلاسيكيون، إلى السلوك الإنساني بدافع المنفعة الشخصية، وهم يعممون هذا المبدأ النفعي على مجمل السلوك الإنساني وليس فقط على السلوك الاقتصادي. لذلك يرفضون مبدأ التضامن والعدالة الاجتماعية، على مستوى المجتمع الواحد أو على مستوى العالم. فهو عندهم من مخلفات عصر الإيديولوجيا والمثاليات، باعتباره غير منصف للذين يبذلون جهداً أكبر، والذين هم الأقدر على المبادرة ومخاطرها. من هذا المنطلق يعارضون دولة الرعاية والكفالة.

ويختزل الليبراليون الجدد مسألة العدالة في جانبها القضائي، عبر مطالبتهم بقضاء سريع نزيه ومتخصص ليخدم مقاولاتهم واستثماراتهم. وتجد هذه الليبرالية الجديدة صدى لها لدى العديد من رجال الأعمال وأساتذة الاقتصاد في العالم العربي.

وعليه أصبح ليبراليونا التابعون بدورهم يختزلون أيضاً الحريات كلها في حرية المبادرة الاقتصادية، ويطالبون بتحرير الاقتصاد من تدخل الدولة، وكأنهم، في نهاية الأمر، يريدون أن يقتصر دور الدولة فقط على حفظ الأمن، نظراً لضرورته للاستقرار وضمان سير الأعمال وجلب الاستثمار. فيما لا تعنيهم العدالة في شيء، سوى كونها عائقاً ضد الفعالية الاقتصادية.

إن ليبراليينا المقلدين، كما يصفهم علي أومليل، يفهمون من إنهاء دولة الرعاية على أنه تقليص للضرائب وللحقوق الاجتماعية للعمال، وهم يريدون من إعطاء الحرية للقطاع الخاص كسب امتيازات واعفاءات، وبيع القطاع العام لهم تحت مطلب الخصخصة. لكنهم يتناسون أن الليبرالية كل متكامل، ويكتفون بالمطالبة بحرية المبادرة الاقتصادية مفصولة عن منظومة الحريات، لذلك فإن هدفهم هو تحرير الاقتصاد وليس تحرير المواطن.

في حين يكرس الليبراليون الجدد نوعاً من العرقية الثقافية، حينما يرادفون بين التحديث والتغريب، ويجعلون القيم الغربية هي الوحيدة التي تكرم الإنسان، وتبني الديمقراطية الحقة، وتؤسس اقتصاد السوق الذي وحده يخلق الثروة. ورغم كل ذلك فإن الثقافة الغربية قدمت للإنسانية عبر تاريخها مكاسب حاسمة، إلا أنها تبقى ثقافة من ضمن ثقافات متواجدة في عالم اليوم، وعليها أن تتفاعل وتتحاور وتتوافق على قيم إنسانية مشتركة.

لأن حوار الثقافات لا يمكن أن يؤول إلى مجرد مناظرة ثقافية أودينية، ولا يمكن أن يكون ذا جدوى إذا ما تمسك كل طرف بخصوصيته المطلقة. وهذه بالضبط حال كل «الأصوليات»، بما فيها أصولية الليبراليين الجدد.

ويتساءل علي أومليل: لماذا ظل «الليبراليون» العرب أفراداً معدودين، ولم يتحول الفكر الديمقراطي الليبرالي إلى حركة سياسية فاعلة في الواقع العربي؟ ترتبط الاجابة بطبيعة الثقافة السياسية للقوى التي طالبت بالتغيير، ذلك أن قضية الديمقراطية لم تكن قضية مبدئية أو اختياراً استراتيجياً عند قوى السلطة أو المعارضة، بل كانت الأولوية عندهم هي قضية السلطة، التي تلحق بها كل القضايا؛ فالحريات الشخصية ملحقة بالحريات العامة ومندمجة فيها، سواء إبان النضال من أجل الاستقلال، أو في ظل دولة الاستقلال التي تبنت سياسات التعبئة لتصبح دولة سلطوية شمولية.

وتكبر المشكلة مع الدولة في البلدان النامية، التي تشكلت وفقاً لإيديولوجيا تقدس الوحدة وتنبذ التعددية، وتقرّ بمركزية الإدارة والسلطة على حساب التعددية وإشراك المنظمات الأهلية أو منظمات المجتمع المدني. وهذا يعود إلى طبيعة الثقافة السياسية للسلطة السياسية التي قامت على العقلية الانقلابية، وعولت على «الثورة» لانجاز التغيير الشامل، وطي التخلف في زمان مختزل. وفيما يتجه الوضع الحالي للدولة نحو العولمة، فإنه يتأثر على نحو عميق بطبيعة النخب الليبرالية المتحمسة لاقتصاد السوق، ولا تهتم بالحريات التي تعني كل المواطنين، أي الحريات المدنية والسياسية.

لقد أدى ذلك الإخفاق إلى صعود هويات كانت مكبوتة إلى السطح، ثم جاءت العولمة لتشكل تحدياً خطيراً لما ادعته السلطة من هوية ثقافية متجانسة. وفي العالم العربي على وجه الخصوص، صار للمسألة الثقافية أهمية كبرى، من جهة كونها رهاناً أساسياً في خلاف قد يصل بالرأي العام والنخب إلى حد الانشطار؛ سواء حول المسألة الدينية أو حول علاقة الدين بالسياسة، أو فيما يتصل بقضية المرأة وسواها.

ويخلص علي أومليل إلى تحديد الإشكال في بلداننا العربية، المتمثل في كيفية انجاز تراكمين متكاملين: تراكم اقتصادي لإرساء الديمقراطية على قاعدة اقتصادية، وتراكم سياسي ديمقراطي لتصبح الديمقراطية هي بنية النظام الاجتماعي والسياسي. ويبدو أن هذا الإشكال المركب لن يحل إلا بتضافر جهود حثيثة ومخلصة، والمرجح أنه لن يجد الحل في المنظور القريب.

وعلي أومليل مفكر وكاتب ودبلوماسي مغربي، له العديد من الدراسات والمؤلفات الفكرية والثقافية، منها: «الخطاب التاريخي: دراسة في منهجية ابن خلدون»، و«في شرعية الاختلاف»، و«موقف الفكر العربي من المتغيرات الدولية»، و«السلطة الثقافية والسلطة السياسية»، و«الإصلاحية العربية والدولة الوطنية»، و«التراث والتجاوز»، و«التكامل الثقافي العربي في عصر العولمة».

رحيل عندليب فلسطين

طلعت سقيرق

● رحل مؤخراً في دمشق عن ثمانين عاما عندليب فلسطين الشاعر الكبير يوسف الخطيب ، صاحب العطاء الثرّ ، والمجد الأكثر إصرارا على إعطاء الشعر قوة لا تفتر ولا تذوي .. قال لي ذات لقاء معه ، وما أكثر اللقاءات الرائعة مع شاعرنا الكبير يوسف الخطيب ، الصديق والمعلم والشادي أنا «مواطن عربي فلسطيني ، رأيت نور الحياة أول مرة في دورا الخليل يوم السادس من آذار عام ١٩٣١ ، وأستطيع أن أتذكر الآن جيداً أن طفولتي المبكرة كانت مفعمة بالحيوية و الإثارة ، وأنني ذقت حلو الحياة ومرها في جرعة واحدة .. كان أول ما وعيته من شؤون الدنيا هو استيقاظي اليومي مع آذان الفجر على صوت والدتي وهي تصلي وتقرأ القرآن بصوتها العذب الحنون ، وكذلك على أصوات الجنود الانكليز وهم يقتحمون بيتنا بأعقاب بنادقهم وبساطيرهم بحثاً عن والدي لتعاونه مع الثوار ، لكن والدي كان قد التجأ إلى سورية للإقامة مؤقتاً بين أبناء عمومته في كسوة دمشق .ثم في سن السابعة تقريباً بدأت أعتقد بقوة بأنني لابد أن أكون شاعراً في مقبل الأيام ، حيث ساعدتني على مثل ذلك الاعتقاد عدة عوامل ذاتية ، ومؤثرات خارجية ، على حد سواء .. فمن العوامل الذاتية استعدادي الفطري لإنشاد القصائد والأغاني المدرسية الابتدائية بشغف عظيم ، ثم محاولة تقليدها والنسج على منوالها بكلمات وأصوات شبه موزونة ولكنها بدون أي معنى على الإطلاق .. «.. فميلاد الشاعر الكبير كان كما ذكر في السادس من آذار عام ١٩٣١ في دورا الخليل .. أنهى دراسته الثانوية في الخليل، ثم تابع تحصيله الدراسي في جامعة دمشق- كلية الحقوق- وتخرج فيها عام ١٩٥٥. عمل في مناصب مختلفة في إذاعات: دمشق، فلسطين، الرياض، صوت العرب، القاهرة، الكويت، بغداد، إذاعة هولندا العربية. وشغل منصب المدير العام لهيئة الإذاعة والتلفزيون في سورية عام ١٩٦٥، وانتخب نائباً للأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين. أسس عام ١٩٦٥ دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون . عضو المجلس الوطني الفلسطيني. عضو جمعية الشعر. من مؤلفاته : -العيون الظلماء للنور- شعر- دمشق ١٩٥٥. -عائدون- شعر- بيروت ١٩٥٨. -واحة الجحيم- شعر- بيروت ١٩٦٤. -عناصر هدامة- قصص- بيروت ١٩٦٤. -ديوان الوطن المحتل- دراسة ومختارات- دمشق ١٩٦٥. -مجنون فلسطين- شعر- دمشق ١٩٨٣.- رأيت الله في غزة – ١٩٨٨...- بالشام أهلي والهوى بغداد –دمشق /١٩٨٨..وقد صدرت أعماله كاملة في ثلاثة مجلدات قبل رحيله بوقت قصير ..

يعتبر ديوان « مجنون فلسطين» لشاعرنا الكبير يوسف الخطيب وهو ديوان سمعي مسجل على أشرطة كاسيت تجربة غير مسبوقة في ميدان الشعر العربي ، وحين سألت شاعرنا الحبيب الغالي عن ذلك قال :» كان هاجسي الكبير طيلة مسيرتي الشعرية المتواضعة ، هو أن أحاول التجديد إلى أبعد الحدود ، ولكن ، على قاعدة التأصيل إلى أعمق الجذور .. ومن هنا فإن تجربتي التأسيسية في ديوان ((مجنون فلسطين))السمعي ، بقدر ما تمثل ، من أحد وجهيها ، انفصالاً شبه كامل عن جميع الطرائق التقليدية في نشر الشعر وإيصاله إلى جمهرة المتلقين، بقدر ما تمثل ، من وجهها الآخر ، اتصالاً كاملاً أيضاً بتلك الخاصة التراثية الفريدة للشعر العربي ، من جهة حضور الشاعر المباشر بين يدي جمهوره ، كما كان عليه الحال في المربد وعكاظ، أو على الأقل من جهة حضوره الذاتي هذا بين أفراد قبيلته ، أو ترحاله عبر الآفاق البعيدة بسبيل أن ينشد ما قد أبدعته قريحته أمام الأفراد والجماعات على حد سواء .. وهكذا ظل حال الشعر العربي لمئات الأعوام اللاحقة أقرب إلى طبيعة النفس العربية ((مسموعاً)) أكثر منه ((مقروءاً)) حتى لكأن شاعرنا القديم قد أراد أن يشير إلى هذه الخاصة ذاتها بقوله :. ((والأذن تعشق قبل العين أحيانا)) .. ولذلك أيضاً انتشر الشعر العربي ((بالرواية)) أكثر مما انتشر ((بالتدوين)) حتى في أوج ازدهار الحضارة العربية في أوائل العصر العباسي، وشيوع القراءة والكتابة في جمهرة واسعة من الناس ، وظهور ألوف المصنفات النثرية في اللغة، والفقه ، والفلسفة ، والعلوم ، فرغم كل ذلك كان لرواة الشعر ـ ولنقل الحمادين الثلاثة مثلاً ـ حضورهم القوي والمؤثر .. ولست أدري تماماً ما الذي كان عليه الحال في أشعار الأمم الأخرى، إلا أنني لم أصادف مطلقاً أنه كان لكل شاعر أجنبي ((راويته)) المختص بإيصال قصائده للآخرين ، كما هو واقع الحال في شعرنا العربي ، وحتى يومنا الراهن إلى حد كبير..»..

رحم الله شاعرنا الكبير يوسف الخطيب .. رحم الله شاعرا أعطى الشعر الكثير من الأناقة والجمال والرفعة والعلو .. كان شاعرا حقيقيا يصعب أن تجد مثيلا له في ابتعاده واقترابه .. في تواضعه وشموخه .. في معرفته الأصيلة العميقة للشعر .. في صداقته النادرة التي لا يمكن أن تنسى الأصدقاء مهما كانت الظروف .. رحم الله شاعرا كان ويبقى شاعر فلسطين وعندليبها بامتياز ..

إصدارات ثقافية

كتاب العرب والعولمة

■ صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «العرب والعولمة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية» وهو يمثل رصداً تحليلياً لأهم ملامح ظاهرة العولمة كما برزت من خلال ندوة «العرب والعولمة» التي عقدها المركز في بيروت بتاريخ ١٧ – ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، وشارك فيها ما يزيد على سبعين مفكراً عربياً بهدف توفير مادة علمية تتناول مجمل الأسئلة الإشكالية المتصلة بمفهوم العولمة وما يمكن أن تفرضه حقائقها على الوطن العربي من تحديات مصيرية.

تطرح العولمة خلافاً في أوساط المفكرين على مستوى العالم، فمنهم من يعتقد أنه من المبكر جداً الاطمئنان إلى حقيقة أننا على عتبة عالم جديد يشهد نهاية السيادة الوطنية في شتى المجالات، فيما يذهب آخرون إلى القطع بأن العولمة تشكل إيديولوجيا جديدة. وانطلاقاً من ذلك تناقش بحوث هذا الكتاب الرئيسية العشرة الجوانب الخلافية التي تطرحها ظاهرة العولمة.

ويتألف هذا الكتاب من قسمين رئيسيين وثمانية فصول تتضمن البحوث الرئيسية والتعقيبات والمناقشات. أما البحوث فهي: «في مفهوم العولمة» للسيد يسين، و«العولمة والتطور التقاني» لأنطوان زحلان، و«ثورة المعلومات: الجوانب التقانية» لنبيل علي، و«العولمة والدولة» لجلال أمين، و«الولايات المتحدة والعولمة: معالم الهيمنة في مطلع القرن الحادي والعشرين» لبول سالم، و«إسرائيل والعولمة: بعض جوانب جدلية العولمة إسرائيلياً» لعزمي بشارة، و«العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟» لعبد الإله بلقزيز، و«العرب والكوكبة» لإسماعيل صبري عبد الله، و«العرب والعولمة: ما العمل؟» لمحمد الأطرش.

الطبعة: الطبعة الرابعة عدد الصفحات: ٥١٥

المؤلف:المؤلف: ندوة فكرية

«فن الممثل»

■ صدر مؤخراً بالشارقة عن إصدارات مجموعة مسارح الشارقة كتاب "فن الممثل"، للروسي ميخائيل تشيخوف، وترجمة نادر قاسم، في قرابة مئتين وخمسين صفحة، من القطع الكبير، ضمن توجّه جديد لإدارة المجموعة برفد أنشطتها المسرحية بسلسلة من المنشورات المتخصصة بالفن المسرحي.

يتشكل الكتاب من ثلاثة كتب، وهي مقالات وحوارات، وتكنيك الممثل، ومحاضرات، تتركز في مجملها على جسد الممثل، وفن التمثيل، إلى حدّ الاختصاص، وكأن مؤلفها يتوجه بطروحاته إلى الممثلين أكثر من سواهم من المرتبطين بالعملية الفنية المسرحية، كالمخرج ومصمم السينوغرافيا، وسواهما.

وربما يصحّ القول أنه كتاب من النوع النادر في المكتبة العربية من حيث موضوعه وفكرته، لكنه أيضاً يدفع بالمختص في حقله إلى أن يجعل من التدرّب على التمثيل نتاجاً لمنهجية بعينها، عندما يحاول المخرج خلق فن للتمثيل ليس متطوراً فحسب بل أيضا يستطيع الممثل الاستفادة منه في إدراك إلى أي حدّ أن هذا الفن متطلّب جدا حتى يصل الممثل إلى أقصى درجات التعبير عن الشخصية التي يقوم بتجسيدها على الخشبة،، إذ أنه بحسب ما يستنتجه المرء من قراءة الكتاب، فإن أمر فن التمثيل ليس متروكاً للموهبة أو المقدرة على الارتجال أو حتى لحصيلة الخبرة الطويلة في هذا المجال أو الذكاء العاطفي والخاص لدى الممثل بل هو أداء تقني أيضاً.

في كتابه الأول "مقالات وحوارات"، يبدو المؤلف ناقداً مسرحياً ذا مسحة أكاديمية واضحة، أكثر مما أنه صاحب أفكار خاصة بفن التمثيل، على الرغم من وجود الانشغال بهذا الفن إلا أنه ليس محورياً في الكتاب.

وربما يكون الكتاب الثاني "تكنيك الممثل"، أكثر كتبه أهمية، ليس لأنه يربط بين الجانبين النظري والتطبيقي، فهذ الربط موجود في الكتب الثلاثة معاً، إنما لأنه كتاب في إعداد الممثل المحترف ليكون ممثلاً محترفاً حقاً، ولتحفيز الممثل المبتدئ على أن يسعى إلى الاحتراف، وفقاً لما اكتسبه من أدوات في سن بعينها وليس في سنّ متقدمة، حيث تتضاءل مقدرة الجسد على اكتساب أدوات الممثل.

أما الكتاب الأخير "محاضرات"، فيبدو للقارئ أنه كتاب شفوي يعيد من خلاله ميخائيل تشيخوف إنتاج مقولاته بلغة نقدية أخرى أكثر تبسيطاً وقرباً إلى طلبة جامعيين، فهو الأكثر سهولة على الاستيعاب، وتصل الأفكار كما لو أنها التماعات أو شذرات تختصر على القارئ الكثير من الجهد في فهم المعنى المراد.

يبقى أمر أخير، هو أن المؤلف معلّم في فن التمثيل لكنه ليس بصاحب نظرية على أي حال. كما أن إصدار الكتاب بالعربية، قد جاء مضغوطاً كثيراً، فالحرف من النوع ضئيل الحجم إلى حدّ مرهق، وقد امتلأت به صفحات من القطع الكبير، وبالتأكيد كان من الممكن أن يكون أكثر يسراً على القارئ لو طبع كل كتاب من الكتب الثلاثة على حدا وبقطع مدروس لا يسبب الإرهاق لقارئها.

مذكرات نجيب محفوظ

■ صدرت عن دار الشروق بالقاهرة طبعة جديدة من كتاب «صفحات من مذكرات نجيب محفوظ» للناقد الكبير الراحل رجاء النقاش. الكتاب صدرت طبعته الأولى عن مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٩٨م، وحمل الكتاب طبعة النقاش التي كتبها له عام ١٩٩٧م، وذكر فيها أسباب إقباله على كتابة هذا الكتاب، حيث نجح النقاش في إقناع محفوظ في أن يروى له سيرته الذاتية.

ورغم أن محفوظ كان يرفض بإصرار أن يكتب هذه السيرة، إلا أنه على مدى ١٨ شهراً من أغسطس ١٩٩١م، رواها للنقاش مسلطا الضوء على جوانب عديدة من شخصيته.

وأدلى الكاتب الكبير الراحل نجيب محفوظ بآرائه للنقاش في كل صغيرة وكبيرة عن الأدب والسينما والسياسية في مصر، ووصف مراحل طفولته، وتجارب شبابه، متناولا رواياته التي أثارت أزمات صحفية وسياسية، ومنها روايته الأشهر «أولاد حارتنا» التي يعترف محفوظ للنقاش أنه تعمد أن تكون أبطالها موازية لشخصيات الأنبياء، ولم يتوقع أن تثير هذه الضجة، ومن الروايات التي أثارت أزمات سياسية روايته «الكرنك» التي استوحى شخصية «حمزة البسيوني» مدير السجن الحربي في عهد عبد الناصر، وهي الرواية التي أثارت اعتراضات هيكل، حينما ذهب إليه نجيب محفوظ عام ١٩٧٢ لينشرها مسلسلة في الأهرام، يقول محفوظ للنقاش: كانت الرواية سببا مباشرا لانقلاب كل اليساريين ضدي، لأنهم اعتبروها هجوما على عبد الناصر، خاصة أنهم في تلك الفترة كانوا مشتبكين في معركة حامية ضد أنور السادات وأنصاره، واعتبروا الرواية مؤيدة للصف المقابل، وهو صف السادات، ويلفت محفوظ إلى أنه لم يقصد الهجوم على عبد الناصر في الكرنك، ولم يتعرض له في الرواية، وكان هدفه الوحيد هو إثارة قضية التعذيب في المعتقلات.

ويشير محفوظ إلى أن تلك الفترة شهدت مخططاً للهجوم على عبد الناصر، وبعد خروج الكرنك، توالت ظهور الأعمال والكتب التي تهاجم عبد الناصر وعهده، لذلك ظن كثيرون أن الكرنك كانت بداية لحملة، في حين أن ظهورها جاء مصادفة ولا دخل لها إطلاقا بتلك الحملة، وهو ما جعل محفوظ يشعر بالضيق، والتسرع في إصداره «الكرنك»، بل وأنها لم يجب أن ترى النور، خاصة أنها لم تكن في خطته الأدبية، وإنما كتبها لتسجيل موقف ضد مبدأ التعذيب داخل المعتقلات.

يذكر النقاش في الكتاب أن محفوظ اعتبر «الكرنك» هي الرواية الوحيدة التي خرج فيها عن منهجه في الكتابة، وهو المنهج الذي يعتمد فيه محفوظ على دراسة كل الحقائق المرتبطة بموضوع الرواية، لكنه لم يفعل ذلك في الكرنك، بل اعتمد على مجرد السمع، وليس المعايشة.

الكتاب يحوى ٢٤ فصلا، تناول محطات كثيرة في حياة نجيب محفوظ، منها طفولته وشبابه، والوظيفة والأدب، وأصدقائه في العباسية، وثورتي ١٩١٩، و١٩٥٢م، والتطرف الديني وأزمة الخليج والمأزق العربي، ثم جريمة الاعتداء عليه ومحاولة اغتياله عام ١٩٩٤م.